

أفق المصطلحية السردية في أعمال رشيد بن مالك

أ.د. عبد القادر شرشار*

جامعة وهران 1

charchar132002@yahoo.fr

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2020-07-30	2020-05-27	2020-05-23



يختزل الباحث رشيد بن مالك المشكلة الأساسية في النقد العربي المعاصر في المصطلحات والمفاهيم المقننة من سياقاتها والمحرّكة في اتجاه غايات لا علاقة لها على الإطلاق بأصولها، ولا بخطاب علمي جدير بهذا الاسم، فنترك فجوات تقوض جهود القارئ العربي في استيعاب النصوص، وتؤثر -في الغالب- على استعداداته في المضي قدما نحو الأحسن.

لذلك؛ نسعى من خلال هذه الورقة إلى الكشف عن الأفق البحثي الذي يتطلع له هذا الباحث، والآليات التي يوظفها من أجل تجاوز مشكلة المصطلحية والمفاهيم في الخطاب النقدي العربي المعاصر من الاطلاع على ما أنجزه من أعمال حول المصطلحية العربية في مجال السيميائيات السردية.

الكلمات المفتاحية: النقد العربي - المصطلحات - السيميائيات السردية



R. Benmalek, résume toute la problématique complexe de la critique arabe contemporaine dans un seul et unique « ordre d'idée », à savoir : (la terminologie et les concepts), introduites souvent dans des contextes étranges aux objectifs et perspectives de la recherche en question, cette pratique a induit à la propagation des formes de textes, souvent compacts, et sans aucune signification possibles .

* أ.د. عبد القادر شرشار charchar132002@yahoo.fr

Notre but dans cet exposé est de dévoiler les pratiques, et méthodes d'écritures souvent pratiquées par ce chercheur soucieux par ses contraintes souvent ignorées par les critiques arabes contemporains.

Mots clés : la critique arabe- la terminologie-la sémiologie narrative

مقدمة:

يختزل الباحث رشيد بن مالك المشكلة الأساسية في النقد العربي المعاصر في المصطلحات والمفاهيم المقطعة من سياقاتها والمحركة في اتجاه غايات لا علاقة لها على الإطلاق بأصولها، ولا بخطاب علمي جدير بهذا الاسم، فنترك فجوات تقوض جهود القارئ العربي في استيعاب النصوص، وتؤثر -في الغالب- على استعداداته في المضي قدما نحو الأحسن.

لذلك؛ نسعى من خلال هذه الورقة إلى الكشف عن الأفق البحثي الذي يتطلع له هذا الباحث، والآليات التي يوظفها من أجل تجاوز مشكلة المصطلحية والمفاهيم في الخطاب النقدي العربي المعاصر من الاطلاع على ما أنجزه من أعمال حول المصطلحية العربية في مجال السيميائيات السردية .

إن المتأمل للمشهد النقدي والفكري العربيين يدرك وجود أكثر من حاجة معرفية ملحة، تفرض تفعيل خطاب نقد النقد، لرسم مساراته المنهجية وصياغة خرائطه المقولاتية، وتكمن هذه الضرورة المعرفية في المعطيات التالية:

أ- التراكم الحاصل في المنجز النقدي، مما يستدعي قراءة ما أنجز من مشاريع نقدية وإعادة تنظيمها، وتقييم فعاليتها، ومعرفة حدودها، وهذا لتشكيل وعي ابستمولوجي وتاريخي بالخطاب النقدي، والتحويلات الحاصلة في صياغة مقولاته.

ب- التأثير الجوهرى للمثاقفة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، فهي تمثل عنصرا تكوينيا في بنية هذا الخطاب سواء من حيث المفاهيم أو المناهج والمصطلحات؛ كل هذه التداعيات تفرض إعادة النظر في دور هذه المثاقفة وأساليب تلقيها، وتقييم حصيلة التفاعل، بوضع آليات تضبط طبيعة هذه المثاقفة وعملية انتقال المفاهيم والنظريات والجهاز المصطلحي المصاحب لها¹.

تدرج أعمال ودارسات الباحث "رشيد بن مالك" ضمن الجهود النقدية العربية التي اختارت توجه السيميائيات السردية (اتجاه مدرسة باريس)، وقد تميز أداء هذا الباحث بالاعتدال العلمي والمنهجي، لا سيما في مجال تحكمه في المنهج، ووضوح الرؤية النقدية. وهو ما ميز تجربته النقدية، وشجع على قراءة ومتابعة مشروعه السيميائي، منذ دراساته الأولى التي أفصح فيها بدقة ووضوح عن مرجعيته النقدية، وعن ولاءه المنهجي الكامل للجهود السيميائية الفرنسية والغريماسية تحديداً². استثمر هذا الباحث مقولات النظرية السيميائية وإجراءاتها التحليلية من أجل التأسيس لمشروع نقدي ضخم، ونظرية سيميائية لتحليل الخطابات السردية العربية، وسبر أغوارها.

تأتي إشكالية المنهج والمصطلح في صدارة الطرح النقدي المعاصر لدى رشيد بن مالك، حيث تطرح اليوم بحدة أكبر من أي وقت مضى، ولا أدل على ذلك من أن المسألة قد تجاوزت النظر إلى الإشكاليتين -لدى الناقد- على أنهما مجرد وسيلتين لغاية نقدية أدبية قصوى إلى عدهما غاية جوهرية في الخطاب النقدي ذاته، مما يدعو إلى ضرورة الاهتمام بهما نظراً لآثارهما العميقة على واقع وآفاق المصطلحية السردية. وقد تتبع الناقد -وباهتمام كبير- علاقة المصطلح بالمصطلحية على الصعيد النظري، وسلط الضوء على ثنائية جدلية، وهي: المنهج والمصطلح وأشار بكل وضوح إلى توافق هذين المفهومين اللذين يختلفان في المسمى ويتفقان في محمولهما وأبعادهما المعرفية.

ومن خلال ما تقدم من عرض موجز جداً لاستراتيجية رشيد بن مالك في طرحه النقدي والمعالج لهذه التجربة في شقيها: المنهجي والمصطلحي يمكن معاينة آثار هذه الاستراتيجية في الأعمال الآتية:

- 1- "مقدمة في السيميائية السردية"، دار القصب، الجزائر (2000)
- 2- "قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص"، دار الحكمة، الجزائر (2000)
- 3- "البنية السردية في النظرية السيميائية"، دار الحكمة، الجزائر (2001)
- 4- أن إينو وآخرون، السيميائية: الأصول، القواعد، والتاريخ، تر: رشيد بن مالك، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان - الأردن (2008)

قامت هذه الدراسات على الحفر في مسألة فقه المصطلح السيميائي، أو ما سيطلق عليه لاحقاً بـ: "صناعة المصطلح". اعتمد في البحوث المذكورة أعلاه على ما بات يسمى " هجرة النص وهجرة المصطلح"، وهي آلية تناص بها ومن خلالها مع الناقد المغربي (محمد بنيس) في كتابه " حدائث السؤال"، كما تناص أيضاً مع هجرة المصطلح لدى (محمد السرعيني)، أي أنه تتبع في حفريات منهجا مكنه من تتبع هجرة المصطلح من منشئه الفرنسي الغريماسي إلى الوطن العربي، وبالتحديد إلى الجزائر. ثم كشف عن الصعوبات والمشاكل التي اعترضت المصطلح السيميائي، كما تتبع في سجل ثان ترجمة المصطلح السيميائي وما آل إليه المشهد النقدي نتيجة ظهور دراسات وأبحاث وجهت الخطاب النقدي إلى ما آل إليه إلى غاية الساعة...

- المحددات المنهجية لأفق القراءة المستقبلية للنصوص السردية لدى رشيد بن مالك:

نسعى في السجل الثاني، هذا، إلى ملامسة أفق المصطلحية السيميائية السردية من خلال ما قدمه الباحث رشيد بن مالك؛ والموسوم بـ (قراءة سيميائية في روايتي: "ثورة بورا" و" دروب العتمة" ضمن مشروع "النص العُماني برؤية عربية" والذي يشكل من وجهة نظرنا أفقا واعدا للمصطلحية السيميائية السردية، بالإضافة إلى كونه فرصة علمية من شأنها تثمين الجهود النقدية العربية الجادة نحو تكريس عملية توحيد المصطلحية النقدية في مجال السيميائيات السردية الذي يعرف توسعا واثراء في التحري العلمي الجماعي للنهوض بالثقافة العربية وترقية البحث العلمي³.

وقد انطلق هذا المشروع من قناعات أفصح عنها مقدم هذا المؤلف الجماعي " الأستاذ حسن المطروشي"، عضو مجلس إدارة مشروع "النص العُماني برؤية عربية"، وهي التعريف بالمؤلف العُماني، وحاجة النص العُماني إلى الدراسة والتحليل. وهي حاجة لا تقل أهمية عن وجود النص نفسه، من منظور نقدي منهجي حديث، يأخذ بعين الاعتبار تنوع المناهج، والرؤى، ويستكتب مجموعة من النقاد العرب، ممن لهم صيت ذائع في هذا المضمار، لإنتاج مباحث علمية متخصصة⁴.

يشير الناقد في مستهل بحثه إلى الصعوبة المنهجية التي تعترض الباحث أثناء تصديه لروايتين في آن واحد، لينتقل بعدها إلى الحديث عن مشروع " النص العُماني برؤية عربية"، والذي من شأنه أن يوحد علميا الجهود النقدية العربية، ويكرس في الوقت ذاته التحري العلمي الجماعي، والذي يراه الباحث السبيل الوحيد للنهوض بالثقافة العربية، وترقية البحث بعامة والتعريف بالرواية العمانية بخاصة. ثم يعرض المقاربة المنهجية التي سيلامس بها النصين، والتي يستمدّها من السيميائية المحاينة (توجه مدرسة باريس)، وهي في جميع الحالات لن تكون صارمة بالدرجة التي يمل منها القارئ كما يمل وينفر من عدد غير قليل من الدراسات العربية التي ابتعدت كثيرا عن جوهر الممارسة السيميائية التي تعتبر وسيلة فقط لفض الإشكالات التي تطرحها النصوص المعبر عنها باللسان وغير اللسان.

ويقول موضحا هذا الأمر: "وهذا ما لاحظناه ونحن نقرأ هذه الدراسات التي تبدو في غاية التعقيد الذي يعد السمة الغالبة فيها، فمهما حاولنا الاقتراب منها وفهم مراميها واستراتيجيات أصحابها لم نلق إلى ذلك سبيلا. وإذا أمعنا النظر في هذه المسألة، فإننا نلاحظ أن هذه المناهج اتُخذت غاية في حد ذاتها، لا يهم أصحابها على الإطلاق التفكير في مسألة تلقّيها واستيعابها. ولا التقرب منها بتبسيطها وترويضها بشكل يُسهّل تواصل القارئ معها"⁵.

أما وهو بصدد التعليق على ظاهرة التعقيد في الخطاب النقدي السيميائي، فيقول: "فإن الذي يهمهم بالدرجة الأولى هو تعويم نصوصهم بأرمادة من المصطلحات تكون بمثابة الواجهة التي تتعدها رؤية القارئ لتحط بها الرحال إلى اللامعنى والضياع."⁵ ومع استفحال هذه الظاهرة في كثير من الدراسات والتي تعد العائق الذي يحول بين القارئ وبين تلقّيها، يبدو أن الأوان قد آن "لإعادة النظر بشكل ملي في واقع الدراسات العربية والمآزق الذي آلت إليه في غياب حوار حقيقي والتفكير في البدائل النقدية، والنظر في آليات صناعة خطاب علمي يحتكم إلى مصطلحية موحدة في مختلف التيارات النقدية، والخطاب النقدي العربي الذي تعبّر رؤى متناقضة، متضاربة يتساوى فيها الجيد والرديء، المؤسس والمضطرب"⁶.

ويمكن أن نخترل المشكلة الأساسية في النقد العربي المعاصر في المفاهيم المقترعة من سياقاتها والمحرّكة في اتجاه غايات لا علاقة لها على الإطلاق بأصولها ولا بخطاب علمي جدير بهذا الاسم فتترك فجوات

تقوض جهود القارئ العربي في استيعاب النصوص وتنسّف حتى استعداداته في الماضي قُدما نحو الأحسن. ومن هنا يقترح الناقد عدم إدخال القارئ في متاهات النظريات، ولا إثقال نص يصعب عليه فك رموزه. وما دامت الكتابة موجهة للقارئ، فمن الواجب أن تكون هذه الكتابة خطابا نقديا يفهمه ومصطلحية لا تشق عليه الإحاطة بها.

وإذا كانت الاستعانة بالنظرية أمرا مفروغا منه، فإن طريقة توظيفها في النص، ينبغي أن تكون سلسلة غير مقحمة إقحاما على النص وهادفة إلى ضبط دلالاته بالارتكاز على الوسائل الحجاجية التي من شأنها أن تقنع القارئ وتحمله على الانخراط في رؤية الناقد.

بقي أن نشير إلى أن الناقد قد أولى أهمية خاصة لصناعة خطاب نقدي تجاوز فيه بعض المعضلات التي كانت تعيق تواصل القارئ العربي؛ لعل أهمها هذه المصطلحية المعقدة التي انتشرت بشكل لافت في النقود العربية وأثرت سلبا في تلقي المناهج الحدائية. ومن ضمن الحلول التي اهتدى إليها الباحث الاشتغال على المصطلح في النظرية السيميائية واستيعاب مفاهيمه ومنحدراته العلمية والنظر إليه على أنه وسيلة فقط مسخرة لفض الإشكالات التي يطرحها على الصعيدين النظري والتطبيقي.

وهذا يقودنا للقول إن المدونة النقدية ليست أداة بحثية على الإطلاق بل هي موضوع بحث يمنح علة وجوده من المفترضات النظرية والمنهجية. وينبغي الإشارة في هذا السياق إلى أن الباحث في تحليله للروايتين لم يركز على كل المدونة التي بناها انطلاقا من النصين وجاء في بعض الأحيان ناقصا لاعتبارات أساسية عديدة تقف على رأسها استحالة تغطية المدونة دراسة وتحليلا في مثل هذه البحوث ولسد هذا النقص ولو بشكل جزئي حاول التقيد بالخيط القائد العام للنصين الذي يفرض على المحلل ألا يهمل المضامين الأساسية للنص السردية التي تعد عموما ضمانة للحفاظ على سلامة التأويل والفرضيات التي أفضت إليه.

وحتى لا يتقل البحث بهذه المصطلحية فضل الباحث النزوع إلى تبسيط الخطاب ليس على حساب الجوانب النظرية التي تظل الدعامة الأساسية التي تغذي الدرس التطبيقي، بل من خلال التعاطي مع المفاهيم المبسطة الكافية من جهة لتعويض نسبة غير قليلة من المصطلحات ومن جهة ثانية لتجاوز عقبات

الاختلافات الكثيرة في ترجمة المصطلح السيميائي، وتداعياتها السلبية على صناعة خطاب علمي تتوحد فيه الترجمة المصطلحية، بالاشتغال على اللغة العربية وتطويعها وترويضها بطريقة تضمن التواصل مع القارئ العربي.

ومن هذا المنطلق، نعتقد أن الباحث " رشيد بن مالك " قد أسهم في تحديث الخطاب النقدي العربي المعاصر، وذلك من خلال رؤيته إلى الخطاب السيميائي، على أنه ليس مجرد مجموعة أدوات وإجراءات نقدية، يُتوسل بها في تحليل النصوص والخطابات الأدبية، وإنما باعتباره رؤية منهجية أفرزتها الظاهرة العلمانية الغربية، تحمل في طياتها وفي مضامينها، ومدلولاتها شحنات معرفية وفلسفية وعقائدية، وتعكس أبعاد البيئة والحضارة التي تنتمي إليها⁷.

وفي هذا السياق الذي يراعي الأصول العلمية والمعرفية، والمنطلقات الفكرية والفلسفية التي تستمد منها المناهج والنظريات إجراءاتها وأدواتها التنظيرية والتطبيقية، يقدم لنا الباحث " رشيد بن مالك مشروع أفق تطوير البحث العلمي في مجال تحديث الخطاب النقدي العربي ..

إِخَالَاتُ الْبَحْثِ

- 1- سحنين علي، السرديات السيميائية وخطاب التنظير في تجربة رشيد بن مالك، مجلة "سيما" العدد:01، جامعة البحرين، 2014، ص:56
- 2- طبعت هذه الأعمال في مؤلف جماعي، عدد صفحاته 477 صفحة من القطع المتوسط. صدر هذا المؤلف عن "دار سؤال للنشر، ببرت، 2016، بدعم من وزارة التراث والثقافة في سلطنة عمان، وقد شغلت فيه دراسة الباحث "رشيد بن مالك" أكثر من 42 صفحة، وتصدرت باقي المقالات.
- 3- ينظر: محمد الناصر العجمي، في الخطاب السردى/ نظرية قريماس (Greimas)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993 .
- 4-قراءة سيميائية في روايتي: "ثورة بورا" و" دروب العتمة"، مرجع سابق، ص:15
- 5-المرجع السابق، ص. 15.
- 6- ينظر: السرديات السيميائية وخطاب التنظير ..، مرجع سابق، ص:57
- 7-المرجع السابق، والصفحة نفسها.

